

## الفصل السابع

### محمد نبي الرحمة

#### تمهيد

شخصية محمد ﷺ تجسد كل القيم الأخلاقية الرفيعة: من عدل وبر وصدق وشجاعة وصبر، ورحمة وعفو، وكرم وإيثار، ووفاء، وأمانة وعفة وتواضع وحلم وتسامح، وقد وصفه ربه جل شأنه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكل قيمة من هذه المنظومة الباهرة تستحق دراسة كاملة للوقوف على معناها واكتشاف أساسها وأبعاد تطبيقها وأهميتها الحياتية.

لكننا نركز على قيم الرحمة والتسامح في شخصيته، والحكمة في دعوته ﷺ، لدحض الافتراءات الموجهة إليه، غير أننا لا يمكن أن نَفْصِلَ هذه القيم عن بقية المنظومة الأخلاقية فصلاً تاماً، لأنها تشبه الكائن العضوي الذي لا يعيش منه عضو معزولاً عن كيانه المترابط.

ولن نفهم الالتزام الصارم بهذه القيم إلا بالوقوف على أساسها الاعتقادي، ولن ندرك قيمتها الحياتية إلا إذا تذكرنا الهوة السحيقة التي كان يتردى فيها الجاهليون العرب ومن جاورهم وخالطهم من اليهود والنصارى، فقد كانت العصبية الجاهلية، والعنصرية القبائلية في الجزيرة العربية، لا تكاد تعرف من التسامح والرحمة والحكمة إلا أدنى درجاتها، وجاء محمد ﷺ لينتقل بالمجتمع الإنساني إلى آفاق رفيعة، فأخذ المسلم من المخالفين له في الدين وأعطاهم، دون حرج، ولم يعد يضيق بوجود المسيحي أو اليهودي إلى جانبه؛ ولم يعد ينكر عليه مزاياه الشخصية، بل شرع يصاخره ويؤاكله، بكل ما يقتضيه ذلك من المودة والتعاون والتسامح.

ولا تغيب الحكمة والموعظة الحسنة بطبيعة الحال عن أجواء التسامح هذه، فانقشعت سُحب الجفوة، وانتشرت العلاقات الودية، وما تعنيه من تراحم وتعاون بين أتباع الأديان السماوية من المسلمين واليهود والمسيحيين.

### امتداح النبي ﷺ لملك الحبشة المسيحي

حين طال الأذى بالمسلمين في مكة على أيدي المشركين، حثهم النبي ﷺ على أن يهاجروا إلى الحبشة المسيحية، وامتدحها وقال: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه" (١) فخرج ٨٣ رجلاً من المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم، ولاحقهم قريش إلى هناك، فأرسلوا وراءهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليحرضوا النجاشي ضدهم، لكن الملك المسيحي العادل واصل حمايته للمسلمين (٢).

وأرسل النبي ﷺ رسائل إلى ملوك عصره يدعوهم إلى الإسلام، منهم ثلاثة ملوك مسيحيون، هم: "قيصر الروم" و"النجاشي" و"المقوقس" عظيم القبط في مصر (٣) ومما يلفت النظر هنا رد "المقوقس" الذي كان ودوداً جداً، مع هدية قيمة. وقد احترم سفير رسول الله وأكرم وفادته، وقبل رسالته (٤).

### الرحمة في شخصية محمد ورسالته

والرحمة كما تجلت في شخصية النبي محمد ﷺ هي التي وصفها القرآن الكريم والتي كانت سعيًا نبيلًا لرفع العذاب عن كل كائن حي إنساناً كان أو حيواناً. ومعلوم أن مصادر العذاب والألم عديدة، فقد يعذب الإنسان أخاه

(١) سيرة ابن هشام؛ ١ / ٣٢١ - ٣٣٠ .

(٢) نفسه؛ ١ / ٣٣٣ - ٣٣٨ .

(٣) نفسه؛ ٢ / ٦٠٧ - ويوصف المقوقس في بعض المصادر بأنه ملك الإسكندرية.

(٤) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٦٦ .

الإنسان دون رحمة أو شفقة، وقد تأتي الآلام من المرض أو العجز أو الفقر أو طغيان الطبيعة في طوفان أو زلزال أو وباء أو قحط .

ولم يقف محمد ﷺ في أية لحظة من حياته الشريفة موقف المتفرج الذي لا يأبه بالآلام الآخرين، بل كان يبادر إلى درء الأذى عنهم، وقد أنكر القسوة على الإنسان والحيوان، لأن الحيوان يشعر بالعذاب ويعاني الآلام، وإن كان أكبر احتمالاً لها من الإنسان .

قال ﷺ: "أرحم من في الأرض يرحمك من في السماء" (١) وقال أيضاً: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء". فقساة القلوب الذين يعذبون غيرهم لا يستحقون رحمة الله تعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: "من لا يرحم لا يرحمه الله" (٢) وشرع لأمة المسلمة أن: "من ضرب غلاماً له حداً لم يأت، أو لطمه، فكفارته أن يعتقه" (٣). وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: "لعن الله من مثل بالحيوان" (٤) وكان ذلك من ممارسات الجاهليين البليدة، وأوجب عليه الصلاة والسلام على المسلمين الرحمة عند ذبح الحيوان، فقال: "وإذا قتلتم - الحيوان في الصيد - فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" (٥) وقال أيضاً: "لعن الله كل من يتخذ شيئاً فيه روح غرضاً" (٦) ومن الجلي أن الغرض من هذه التعاليم هو تجنب الحيوان الألم، وذلك يحدث بسبب السلاح المثلوم، أو بسبب الإهمال في الذبح بحيث يعاني الحيوان أو الطير مدة طويلة من الآلام.

(١) رواه الطبراني؛ ورجاله رجال الصحيح .

(٢) البخاري؛ الأدب المفرد - باب ٧٧ - ص ١٣٥ .

(٣) رواه مسلم من حديث ابن عمر .

(٤) رواه البخاري ومسلم .

(٥) رواه مسلم والترمذي في جامعه .

(٦) مسلم؛ ١٣ / ١٠٨ .

وأكثر من هذا أمر الرسول ﷺ بالرحمة بالحية والعقرب والكلب والفأرة، وإن أذن بقتلها إذا وُجِدَتْ في مساكن الناس (١) أما إذا وُجِدَتْ في بيئتها الطبيعية في الصحراء حيث لا خطر منها على البشر، فلا يجوز قتلها، كذلك نهى ﷺ عن حرق النمل وعن قتل الحيوان عبثاً (٢).

وروي البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: "عُذِّبَتْ امرأة في هرة، حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار؛ يُقال - والله أعلم - لا أنت أظعمتيها ولا سقيتيها حين حبستها، ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض" (٣) وجاء رجل ببيضة يمامة فأمره بردها إلى عشها رحمةً بها (٤).

#### رحمته بفقراء الأسرى يوم بدر

ولقد آذى المكيون المشركون رسول الله ﷺ أشدَّ الأذى، ثم جيَّشوا له جيشاً ليهاجمه في المدينة في غزوة بدر، وقد هزمهم شر هزيمة وأسر خمسة وسبعين رجلاً، وقتل مثلهم، ثم سمح لهم بفداء أسراهم بأربعة آلاف درهم للرجل، تخفض إلى ألف درهم، بحسب قدرة كل أسير، وتفضل ﷺ بالمن على الفقراء الذين لم يكونوا يملكون شيئاً، منهم: أبو العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي ابن أبي رفاعة، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب: "كان محتاجاً ذا بنات". فكان ﷺ مثلاً رفيعاً في العفو والتسامح والرحمة، حتى نظم أحدهم فيه شعراً يثني عليه (٥) وكان فداء بعضهم تعليم أبناء المسلمين الكتابة، وهو حل يسير لمشكلة اليمامة ومهينة.

(١) رواه الذهبي في كتاب الكبائر؛ ص ٢٠٥.

(٢) نفسه؛ ص ٢٠٦.

(٣) البخاري؛ الأدب المفرد؛ باب ١٧٦؛ ص ١٣٨.

(٤) نفسه؛ باب ١٧٧ - ١٣٩.

(٥) ابن هشام؛ ١ / ٦٥٩، ٦٦٠.

وكان ﷺ رحيماً بالحيوان؛ ومن ذلك أنه قال: "إذا سافرتُم في الخصب فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتُم في السَّنة فأسرعوا عليها السير..." (١).

ويقول الإمام النووي: "معنى الحديث الحث على الرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها، فإن سافروا في الخصب قللوا السير وتركوها ترعى في بعض النهار وفي أثناء السير فتأخذ حظها من الأرض بما ترعاه منها، وإذا سافروا في القحط عجلوا السير ليصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها..." (٢).

ونهى ﷺ عن وسم الحيوان في وجهه (٣) وهذا النهي يعني الرحمة والرفق بالحيوان واحترام وجهه كأنه شخص! ونهى ﷺ عن لعن الحيوان كما نهى عن لعن الإنسان (٤).

والله تعالى يقول ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فكيف كان عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين؟

لقد عذب الإنسان نفسه في القديم والحديث بالمظالم المريرة التي اقترفتها الأمم والجماعات ضد غيرها، فعرفت البشرية الحروب التي لا تكاد تتوقف حتى تشتعل من جديد، واستباح الإنسان قتل أخيه وجرحه وتعذيبه وأسره ونهب ماله وإذلاله، وكلما تقدم البشر في الحضارة ازدهرت صناعة السلاح، حتى عُرفت الأسلحة النووية، واستعملت في اليابان في الحرب العالمية الثانية، دون أي مسوغات عسكرية، فأزلت مدينتي هيروشيما وناجازاكي من الوجود وقتلت مئات الألوف من البشر (٥).

وجاء محمد بالسلام للملايين ممن آمنوا به.

(٢) مسلم؛ الشرح - ١٣ / ٦٩ .

(٤) نفسه؛ ١٦ / ١٤٧ .

(٥) أبو الحسن الندوي؛ السيرة النبوية؛ ط ٥، ص ٤١٥ .

(١) مسلم؛ ١٣ / ٦٨ .

(٣) نفسه؛ ١٤ / ٩٨ .

وجاء محمد ﷺ بتحريم الخمر، ونجح في إقناع الأغلبية العظمى من أتباعه بالتوبة عنه، على الرغم من إدمانهم الشهير لمعاقره الخمر قبل بعثته، وتلك معجزة من معجزات محمد ﷺ، أنقذ بها الملايين، بل المليارات، من أبناء أمته في القديم والحديث، من عذاب الخمر، وهي أم الخبائث، وأشدّها فتكاً بالأبدان والعقول والأرواح، وحتى اليوم، لم يعرف الخمر من المسلمين المعاصرين إلا من احتك بالغريبين وتابعهم.

وكما هو معلوم، معظم الغريبين يتعذبون بسبب معاقره الخمر، وهذا لا يحتاج إلى براهين لأنه واقع ملموس ومشهود، وتعتبر معاقره الخمر من أخطر المشكلات التي يواجهها الغريبيون،<sup>(١)</sup> وقد انتشرت العيادات المتخصصة في مساعدة المدمنين على الإقلاع عن الخمر، وثبت للناس أن ذلك صعبٌ جداً.

وظل المسلمون الغريبيون في مأمن من ذلك العذاب الأليم.

ولأن الخمر في متناول الجميع في بيوت الغريبين، فقد امتدت أيدي الأطفال إليها، وترددت أسماء أولاد الرؤساء ضمن قوائم المتعاطين والمدمنين، وقد وجد ابن بليز رئيس وزراء بريطانيا السابق مطرّحاً على الرصيف في حالة سُكر شديد!

وقد عثرت السلطات على "جيننا بوش" ابنة الرئيس "جورج بوش" في حالة سُكر في إحدى حانات واشنطن سنة ٢٠٠١، ولم تكن قد بلغت سن ٢١ سنة ليسمح لها بتناول الخمر، وقدمت أختها "نويل" وصفة طبية مُزورة لتحصل على حبوب "زاناكس" المخدرة، وقد عوقبت على ذلك بالسجن يوم ٧/٧/٢٠٠٢ لمدة ٧٢ ساعة.

وجاء في دراسة أجراها المعهد الملكي للأطباء النفسيين سنة ١٩٨٦ في لندن عن

(1) Toynbee; Civilization on Trial; London, 1957, pp.205-299.

الخمر وآثارها المهلكة، أنها أكثر ضرراً من الهيروين والكوكايين وكافة أنواع المخدرات، لأنها تسبب وفيات أكثر ومعاناة أشد وضرراً أبلغ، وأظهرت دراسة أجرتها وزارة العدل الأمريكية سنة ١٩٩٩م أن إدمان الخمر والمخدرات هو سبب اكتظاظ السجون الأمريكية بالنزلاء، لأن أكثر من نصف المسجونين اعترفوا بأنهم كانوا في حالة سكر عندما ارتكبوا جرائمهم، ونشرت دراسات عديدة في الدول الغربية أجرتها هيئات علمية عريقة تؤكد أن الخمر خطر عظيم، أو كما يعبر النبي ﷺ، أنها أخبث الخبائث، أو كما يقول رب العالمين: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] وقد أفلح الذين أطاعوا نبيهم وكتابتهم ونعموا بالسعادة ونجوا من الآلام والعذابات التي يجلبها الخمر لشاربيها، وذاق العصاة الذين أدمنوها صنوفاً من العذاب والألم.

وأحسب أن هذا يكفي لبيان كيف كان محمد رحمة للعالمين، إذا أصغوا إلى حكمته واستجابوا لدعوته. (ولولا محدودية البحث لأضفت ضعف ما قدمت من بيانات تبرهن على أنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين).

وكان من العسير على المسلمين الجدد الذين كانوا يعاقرون الخمر أن يقلعوا عنها مرة واحدة، وتجلت الحكمة في دعوة محمد ﷺ في اصطناع التدرج لبلوغ الغاية العظيمة، فبدأ التحريم أولاً للسكر في أثناء الصلاة، فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [النساء: ٤٣].

وجاهد المجتمع المسلم كله للبراءة من الخمر وما تجلبه من شرور، وكان ذلك الجهاد عميراً جداً، لأنه جهاد ضد الذات، لا ضد عدو خارجي، لكن الإيمان الديني والغاية النبيلة من وراء التوبة، ووضع حد صارم للآلام والعذابات التي كانت تفتك بالمدمنين، ووصف القرآن لها بأنه رجس من عمل الشيطان، كل ذلك يسر للأمة تحقيق تلك النقلة الهائلة إلى مجتمع نظيف من الخمر، ولنتذكر أن الأمة الأمريكية أرادت أن تحقق تلك النقلة فلم تقدر، وقد حرمت الخمر ووَضَعَتْ نص التحريم في صلب

الدستور الأمريكي، لكنها عادت وعدلت الدستور ليبيح تعاطي الخمر، وقد فعلت ذلك لأن صناعة الخمر تحولت في فترة التحريم إلى صناعة سرية، لا تراقبها الإدارات الرسمية، وكانت أضرار التحريم بسبب ذلك أكبر من الإباحة.

ولا تزال البراءة من الخمر أمنية عزيزة للأطباء والمصلحين والحكماء الذين يعرفون أضرارها، لكن الغربيين أخفقوا في محاربتها، ثم أضيفت إليها المخدرات من كل صنف، ووقفت الحكومات عاجزة عن المقاومة!

وسر نجاح محمد ﷺ أنه استند إلى دين وإلى عقيدة، في حين أخفق الغرب لأن الثقافة العلمانية السائدة في بلاده نبذت الدين، وتقبلت تعاطي الخمر على أنه سلوك حضاري سليم، فأوغل الناس في تعاطيها حتى تضخمت المشكلة وعجز الجميع عن حلها! (١).

### رحمته بالأطفال والخدم

وعن أبي هريرة قال " قَبِلَ رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع ابن حابس التميمي جالساً فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: "من لا يرحم لا يُرحم" (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة" (٣).

---

(١) راجع المسألة بتوسع في كتابي؛ البديل الأمريكي للإسلام؛ نشر دار التحرير؛ سنة ٢٠٠٤ - البحث ٨.

(٢) فتح الباري؛ كتاب الأدب - باب ١٨ رقم ٥٩٩٧ - باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته - ٤٢٦ / ١٠.

(٣) نفسه؛ رقم ٥٩٩٨.

وعن عائشة أنه ﷺ "وضع صبياً في حجره يحنكه فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه" (١).

ويقول أنس رضی الله عنه: "كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشيع الجنابة، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار، وكان يوم قريظة والنضير على حمار، ويوم خيبر على حمار مخطوم برسني من ليف، وتحتة إكاف من ليف" (٢) وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ: "كان يعلف البعير، ويقم البيت، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطنن معه إذا أعيأ، وكان لا يمنع الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصفح الغني والفقير، ويسلم مبتدئاً، ولا يحتقر ما دعي إليه، ولو إلى حشف من تمر..." (٣).

### قصة بُريرة

ومن الأدلة على رحمته وعطفه ورقته شفاعته عند جارية تُدعى "بُريرة" كي تراجع زوجها، قال لها ﷺ: "لَوْ رَأَيْتَهُ؟" فقالت: أتأمرني؟ قال: "لا، إنما أنا شافع". فقالت "لا حاجة لي فيه" (٤) فقد كان عليه الصلاة والسلام آسفاً لما كان يعانيه الزوج المسكين ورقاً له قلبه الشريف، لكنه لم يكن ليقسر المرأة على الحياة مع زوج لا ترضاه ولا تحبه.

وقال ﷺ: "اللهم إنني اتخذت عندك عهداً لن تخلفني، فأبما مؤمن سببته أو جلدته فاجعل ذلك كفارة له يوم القيامة" (٥).

ومن رحمته ورفقه وعطفه على الرقيق، شرع للتخفيف عنهم وقال لأتباعه

(١) فتح الباري؛ كتاب الأدب؛ رقم ٦٠٠٢ - باب ٢١ وضع الصبي في الحجر؛ ١٠ / ٤٣٣ .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) الرسالة القشيرية؛ ١ / ٤٣١ .

(٤) ابن القيم؛ زاد المعاد، ٤ / ٣٥ .

(٥) فتح الباري؛ رقم ٦٣٦١ - باب ٣٤ - ١١ / ١٧١ .

المؤمنين: "لا يقولنَّ أحدكم: عبدي وأمتي! كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل (أحدكم): غلامي وجاريتي وفتاتي" (١).

### رحمته بالأطفال

قال أبو قتادة: خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص (بنت زينب بنت النبي) على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضمَّها، وإذا رفع رفعها" (٢).

ونهى ﷺ عن تعذيب الإنسان لأخيه الإنسان، وتوعَّد الذين يقتربون التعذيب فقال: "إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا" (٣).

ونهى النبي ﷺ عن تقنيط الناس من رحمة الله، وقد علم عليه الصلاة والسلام أن رجلاً قال: "والله لا يغفر الله لفلان!" وقال الله تعالى: "مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى (يُحْلِفُ) عَلِيٌّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ، أَوْ كَمَا قَالَ" (٤). وقال تعالى للمُسْرِفِينَ ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

### محمد: منقذ الإنسانية

وبسبب هذه الأخلاقيات السامية أعجب به كثيراً جورج برنارد شو = George Bernard Show وقال: "إنني أقدرُ دين محمد تقديراً رفيعاً بسبب حيويته المدهشة، إنه الدين الوحيد الذي يظهر لي وقد امتلك القدرة لمواجهة الأشكال المتغيرة للوجود، والتي تجعله جذاباً لكل عصر، ولقد درست حياة ذلك الرجل المدهش، وفي اعتقادي بغض النظر عن كوني رافضاً للمسيحية أنه يجب أن يسمَّى منقذ الإنسانية **The Saviour of Humanity**. وأعتقد أنه لو أن رجلاً مثله قد صار الحاكم المطلق للعالم الحديث، فإنه سوف ينجح في حل مشكلاته بطريقة تحقق له

(٢) فتح الباري: رقم ٥٩٩٦ - ١٠ / ٤٢٦ .

(٤) نفسه، ١٦ / ١٧٤ .

(١) مسلم؛ ١٥ / ٥ - ٦ .

(٣) مسلم؛ ١٦ / ١٦٧ .

السلام والسعادة التي يتوق إليهما: وأنا أُنَبِّأُ بأن دين محمد سيكون مقبولاً في أوروبا في المستقبل كما أنه بدأ يُقبل في أوروبا اليوم" (١).

والإحصاءات تشير إلى تحقق نبوءته، وفي الوقت نفسه تثير القلق لدى عدد من الدوائر الغربية!

وتبرز أخلاقيات الرحمة الحقة والتسامح العظيم في المواقف التي يحكم فيها النبي ﷺ على أعدائه، المهزومين الذين لا يملكون سوى الاستسلام الدليل لحكمه. فتكون الرحمة، ويكون التسامح من القوى القادر على الضعيف المستسلم آية من آيات الأخلاق النبوية الكريمة.

فهؤلاء بنو قريظة القبيلة اليهودية الكبيرة تدخل في عهد وتحالف وسلام مع النبي ﷺ، ثم تدور الأيام ويأتي المشركون القرشيون مع أحلاف لهم من غطفان لغزو المدينة المنورة واستئصال محمد وأتباعه منها، وتحاصر المدينة، وتبحث عن طريقة لعبور الخندق الذي حفره المسلمون لحمايتها، فلا تفلح في شيء، ويذهب زعيم يهود بني النضير حيمي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد يغريه بخيانة العهد ونقضه والانضمام إلى المشركين ضد محمد والمسلمين، وفتح الطريق إلى قلب المدينة عبر مساكن قريظة، ويرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ إلى كعب ليتأكدوا من موقفه، فيقابلهما بالإعلان الحاسم بنقضه للعهد.

كانت تلك كارثة عسكرية للمسلمين، لكن الله سلّم، وانسحب المشركون خائبين راجعين إلى ديارهم، فماذا يفعل محمد؟ هل يسكت على خيانة العهد وتعريض المسلمين لنكبة ساحقة؟ هل يترك قريظة الخائنة شوكة في خاصرة المدينة؟ أم ينزع تلك الشوكة لتأمين عاصمة الدولة المسلمة الناشئة؟

(1) Khurshid Ahmad; The Genuine Islam; Singapore, vol. 1. No.8, 1936. Islam Basic Principles; p.11

لقد سارع النبي ﷺ إلى قريظة وحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، وقد عهد إلى سعد بن معاذ ليحكم فيهم؛ وقد التزم بحكم التوراة في مثلهم، وهو: القتل للمقاتلين وسبي النساء والولدان (١).

وهذا هو الحدث الذي يُستخدم عادة لتصوير النبي ﷺ بصورة الرجل القاسي الذي لا يعرف الرحمة، وتلك صورة زائفة لا مسوغ لها في شئون الخيانات الحربية الخطيرة، وضرورات الأمن لامة صغيرة تهددها الأخطار من كل جهة، وحكم سعد في قريظة هو حكم التوراة، كتاب اليهود المقدس، ولو أن المشركين هزموا المسلمين في تلك الغزوة لطبقوا حكم التوراة نفسه.

وفي غزوة بني المصطلق، وكان رسول الله ﷺ على رأس الجيش، وكان زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ضمن الناس، وقد تفوه بكلام مهين على رسول الله، ومن وراء ظهره، فقال ﴿لَنْ رُجِعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ [المنافقون: ٨] وبلغت النبي ﷺ فغضب لذلك، وجاء إليه عبد الله ابن عبد الله بن أبي، بعد أن علم بمقالة أبيه، وقال للنبي: أنا أقتله يا رسول الله إن كنت قاتله! فقال النبي ﷺ: "بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا" (٢).

فهذه هي أخلاقيات النبوية السامية إزاء الاعتداءات والإهانات، أخلاقيات التسامح والعفو والرحمة، وقد قدر النبي للابن حرصه على طاعته وغيبرته على شخصيته وعرضه قتل أبيه، وقوله: أنت الأعز وهو الأذل يا رسول الله! فكان عفو النبي بالابن أكثر مما هو رحمة بالوالد.

ويوم مات عبد الله بن أبي بن سلول صلى عليه رسول الله ﷺ، وهكذا رحمه بعد مماته كما رحمه في حياته.

(١) سيرة ابن هشام، ٢ / ٢٢٢، ٢٤٠.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢ / ٢٩٣.

وقصة يهود بني نضير قصة جريمة كبرى، فقد خرج النبي ﷺ إلى ديارهم يستعينهم في دية قتل بني عامر، وهم يومئذ حلفاؤه، فتظاهروا بالموافقة، ولكنهم دبروا لقتله! وتكفل عمرو بن جحاش بن كعب، وهو أحدهم، بإلقاء حجر على رأس النبي وهو جالس إلى جوار بيت من بيوتهم، لكن الله تعالى بعث من أخبر النبي بالمؤامرة، فترك مكانه، ورجع إلى المدينة<sup>(١)</sup>.

فماذا يصنع النبي بحلفاء متآمرين بقتله؟

لقد حاصروهم في ديارهم حتى نزلوا على حكمه، ومع ذلك لم يقتل أي واحد منهم، لا من زعمائهم، ولا الذي تكفل بإلقاء الصخرة على رأسه ﷺ.

وأثبتت المؤامرة الشنيعة لقتل النبي ﷺ أن هؤلاء الناس لا أمان لهم ولا عهد؛ وأن أمن الدولة الإسلامية الناشئة لا يتحقق مع وجودهم في قلب عاصمتها، ومن ثم قرر النبي ﷺ إجلاءهم عن ديارهم، وترك أموالهم لهم. وأسلم رجلان فتركا في ديارهما، وهكذا رحمهم النبي مرة حين امتنع عن قتلهم، ومرة حين تركهم يجلبون عن المدينة وهم يحملون أموالهم معهم، وكان قتلهم هو العقوبة العادلة للغدر بالحليف ونقض عهده والتآمر لقتل النبي ﷺ. ولا مجال للقول إن إجلاءهم عن ديارهم عقوبة قاسية، لأن أمن المدينة المنورة - عاصمة الدولة المسلمة الناشئة - لم يكن ليستقر في وجودهم كشوكة في خاصرتها، ولا يُتصور عقوبة أخف من ذلك، وتلك هي الرحمة من جانب القوي المنتصر القادر على كل عقوبة أخرى، ولو كان المنتصر قائداً عادياً لأبادهم، أو على الأقل: لَقَتَلَ المقاتلة وسبى النساء والذراري، وسلب أموالهم، فلا قتل ولا سبى ولا سلب للأموال، بل مجرد الجلاء عن الديار، فهل فوق هذا رحمة وتسامح مع عدو غادر متآمر لم يعرف للعهد حُرمة؟

(١) سيرة ابن هشام : ٢ / ١٩٠

ولما شرع يهود خيبر في التآمر ضد الدولة المسلمة الناشئة غزاها المسلمون، وانهزمت خيبر، ومن رحمته ﷺ أن تركهم يزرعون أراضيهم : "ولهم شطر ما يخرج منها" (١) وهذه هي قواعد المزارعة بين المسلمين أنفسهم، وهي القواعد التي تطبق حتى اليوم في العالم الإسلامي بين المسلمين، لكن ملكية الأرض آلت للفاتحين، وهي أهون النتائج للحرب في ذلك الزمان .

وقد دَسَّتْ امرأة يهودية لرسول الله ﷺ سماً في لحم شاة لتقتله انتقاماً لقتلى اليهود، ولكنه ﷺ لم يسغه، ولفظه، ومات رجل أكل منه مسموماً، واعترفت المرأة بجريمتها، وكان جزاؤها القتل شرعاً، ولكنه عفا عنها، فكان ذلك مثلاً أعلى في التسامح والرحمة .

ويوم الحديبية بعثت قريش ٤٠ رجلاً، ليأسروا بعض جنود النبي ﷺ ، وقد : "رَمَوْا في عسكر الرسول ﷺ الحجارة والنبل" (٢) وذلك عدوان صريح وخطير . لكن جنود النبي استطاعوا أن يأسروا المعتدين، وكان من حقه أن يطلب فدية لإطلاق سراحهم، لكنه لم يطلب شيئاً، فعفا عنهم وختلّى سبيلهم .

وكان ذلك مثلاً رفيعاً للتسامح والرحمة والعفو عند المقدرة .

وفي الطريق إلى مكة لفتحتها حمل الراية سعد بن معاذ، ومربأبي سفيان ابن حرب، فقال سعد اليوم يوم الملحمة! واليوم تستحل الحرمه! (يعني الكعبة) فقال النبي ﷺ : "بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة" . وأمر بأخذ الراية من سعد وإعطائها لابنه كتأديب له (٣) .

وكان عقيل بن أبي طالب قد استولى على دار رسول الله بعد الهجرة؛ ثم

(١) فتح الباري؛ كتاب المغازي؛ باب ٤٠؛ رقم ٤٢٤٨؛ ص ٤٩٦ .

(٢) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٣١٤ .

(٣) ابن كثير؛ البداية والنهاية؛ ٤ / ٢٨٨ .

باعها، ولذلك سئل رسول الله وهو في الطريق إلى مكة أين تنزل يا رسول الله؟ فقال: "وهل ترك لنا عقيل من منزل؟" ونزل في خيمة في شعب أبي طالب، وكان من حقه أن يطرد السكان الذين اشتروا داره، وأن ينزل بها ولكنه لم يفكر في ذلك، وليس بوسعنا أن نفهم ذلك السلوك السامي الكريم: وهل هو رحمة بالسكان الذين اشتروا الدار، أم هو احترام لعقيل ابن عمه وأمل في إسلامه؟ ولو كان الفاتح العظيم رجلاً عادياً لأمر جنوده بإخراج السكان عنوة من الدار، لكي يعيش فيها، وكان ذلك حقه الذي لا ينازعه فيه أحد، لكن أخلاقيات النبوة تأبى إلا أن تظهر في كل مناسبة واضحة جلية.

ودخل الفاتح الكريم مكة وهو راعع على ناقته، وحين اجتمع الناس حول الكعبة، وحطم المسلمون أصنامهم، قال لهم النبي: "ما ترون أنني فاعل بكم؟" قالوا أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء!" وأولئك كانوا هم الذين آذوه وقتلوا بعض أتباعه، واضطروهم إلى ترك ديارهم وأموالهم والهجرة إلى المدينة المنورة. وكان المتوقع أن يستبيح النبي دماءهم وأموالهم، وأن يخرجهم من مكة كما أخرجوه، وأن يعذبهم كما عذبوه هو وأتباعه، لكن الأخلاق النبوية السامية التزمت بالعفو والرحمة والتسامح النبيل، فكان ذلك الموقف الرائع الفريد.

فقط بضعة نفر من المجرمين العتاة الذين حاربوا المسلمين وقتلوهم واعتدوا على شخص النبي وأهانوه، كما اعتدوا على فاطمة وأم كلثوم، هم الذين أمرَ بقتلهم، ولم ينفذ القتل إلا في قلة منهم نظرا لهروب بعضهم، ثم عادوا إلى مكة فعفا عنهم! وبعد أن هزمت هوازن، وأسر من نساءها وذريتها ستة آلاف نفس وأعداد كبيرة من الإبل والشاة، جاء زعماءؤها إلى النبي ﷺ يرجونه أن يُعيد إليهم نساءهم وذريتهم ففعل، رحمة بهم، وأبى بعض المسلمين أن يُعيدوا نصيبهم من السببي، فوعدهم النبي ﷺ بثواب الله، فرضوا وأعادوه، وهوازن هذه هي التي كانت على

وشك أن تهزم الجيش النبوي وتفتك بالمسلمين، والمسكنة التي أظهروها تخفي وراءها  
عداءً مريباً للمسلمين!

وكانت ثقيف قد صمدت لحصار المسلمين لها، وأمطرتهم بالسهام والنبل من  
وراء أسوار قلعتهم، وأوقعت في المسلمين إصابات عديدة، وأراد النبي ﷺ أن  
يضطرهم إلى الخروج ومواجهة المسلمين، فأمر بقطع أعنابهم! وعندئذ توسلوا إليه أن  
يدعها "لله والرحم"، فكف عنهم شفقة بهم، لأن الأعناب كانت مصدر رزقهم  
الأساسي، وتعويضها يحتاج إلى سنوات<sup>(١)</sup>.

وعفا النبي ﷺ عن العبيد الذين طاردوه وأمطروه بالحصى والحجارة حين قدم  
لدعوة ثقيف إلى الإسلام أول مرة، وطلب أحد المسلمين من النبي أن يدعو على  
ثقيف، فقال عليه السلام: "اللهم اهدِ ثقيفاً وأتِ بهم"<sup>(٢)</sup> وقد تحقق ذلك بفضل  
الله، وأتوه مسلمين.

وكان عليه السلام في كل غزواته ينهى المسلمين عن قتل النساء والذراري  
والأجراء الذين لم يكونوا من المقاتلين، التزاماً بقول الله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠] ففي الإسلام  
قواعد شرعية تمنع الحرب من أن تنقلب إلى مجازر دموية تأتي على الأخضر واليابس،  
كما فعل الصليبيون حين فتحوا القدس وقتلوا كل من كان فيها من المسلمين، الرجال  
والنساء والأطفال والشيوخ، المرضى والأصحاء، حسب وصف المؤرخ المسيحي  
"وليم".

\* \* \*

(١) سيرة ابن هشام؛ ٢ / ٤٨١ .

(٢) نفسه؛ ص ٤٨٨ .